3 - السيدة أم رومان زوجة أبي بكر الصديق

نسبها وأزواجها

اسمها زينب، وقيل دعد، ولكن غلب عليها لقب أم رومان فاشتهرت به، والدها عامر بن عويمر.

تزوجت أم رومان في الجاهلية من الحارث بن سخبرة الأزدي، وكانت له مكانة مرموقة في قومه، فأنجبت له مولوداً اسمه الطفيل بن الحارث، وكان مقر الأسرة في السداة بجزيرة العرب.

ثم بدا للحارث أن يخرج بأهله إلى مكة ويتَّخذ بها سكناً، ولكن من يريد العيش في مكة كان عليه أن يحالف أحد زعمائها ليدخل في جواره، وليسر له شؤون معيشته.

ووجد الحارث في أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ ضالته، وكان ذلك قبل مبعث النبي ﷺ، غير أنه لم يطل مقام أسرة الحارث في مكة حتى فقدت مُعيلها الذي كانت تعتمد عليه، وبمقتضى العُرف السائد في جزيرة العرب، كانوا إذا مات الرجل فيهم بادروا إلى الزواج من أرملته تكريماً له وصوناً لأسرته، ولتأمين الحياة الكريمة لها.

ولهذا خطب الصِّدِّيق أم رومان، وتزوجها، وكان من ثمرة هذا الزواج أن ولدت له عبد الرحمن والسيدة عائشة التي أصبحت فيما بعد أم المؤمنين ﷺ.

إسلامها

وعاشت أم رومان وابنها في بيت أبي بكر في سعادة، وهناء، وكرم، وسخاء حتى أصاب قلبها سهم من نور السماء، حين دخل عليها أبو بكر يخبرها بإسلامه، وأن عليه مساعدة رسول الله ﷺ في نشر دعوته، ونقل

رسالته إلى الناس، وشرح أحكام الدين الجديد؛ وأدرك الصِّدِّيق ﷺ أن البداية يجب أن تكون من الأقارب لأنه محل ثقتهم، وموضع اطمئنانهم، وما إن دعا أم رومان لمتابعته حتى سارعت إلى إعلان إسلامها، ولكنه طلب منها أن تكتم الأمر حتى يشاء الله رب العالمين.

وأخبر الصِّدِّيق ﷺ رسول الله ﷺ بإسلام أم رومان فسرَّه ذلك، وأخذ يتردد كثيراً إلى بيت أبي بكر لأنه أكثر أماناً من أي مكان آخر، ناهيك عن الترحيب الكبير الذي كان الزوجان الكريمان يلقيانه به.

وصار منزل أم رومان أول منزلٍ يتلى فيه كلام الله، وتخفق راية الإسلام فيه، بل تحوَّل إلى مدرسة تنتشر من كُواها أنوار الدعوة إلى الله.

مسؤولية مزدوجة

كانت أم رومان لزوجها نعم العون والنصير، وكان أبو بكر لها نعم العشير، ومن أسعد منهما حين يدخل منزلهما خير رسول، ويأتيه بالوحي خير سفير؟.

ولم تكن أم رومان لتتأخر عن بذل أي جهدٍ أو مال من أجل إعلاء كلمة الله، بل راحت تشجع أبا بكر على شراء المستضعفين من موالي قريش حتى يتخلصوا من العذاب الذي يسامونه بسبب إسلامهم، ومن ثم تحثُّهُ على إعتاقهم ومنحهم حرياتهم، وكان سرور الصِّدِّيق بتشجيع امرأته له ومساعدتها إياه في إعلاء كلمة الله فوق كل وصفٍ أو تصور.

لقد وعت أم رومان أن الإسلام حمَّلها مسؤولية مزدوجة داخل المنزل وخارجه، ففي الداخل ينبغي لها أن ترعى زوجها وأطفالها، ولم يكن عجيباً أن تنمو في بيتها زهرة نضرة تُدعى عائشة، فتصبح أماً للمؤمنين، وتملأ الدنيا بعبيرها الفوَّاح!!.

وفي الخارج كان على أم رومان أن تشارك رسول الله ﷺ وزوجها أبا بكر ما يلقيان من أعداء الله، وتواسيهما، وتشد من عزيمتيهما ما تمادى أهل البغي في شرورهم وطغيانهم، ولجُّوا في أذاهم ونكالهم.

مصاهرة الحبيب ﷺ لها

وما أعظم فرحة أم رومان حين علمت أن رسول الله ﷺ يرغب في مصاهرتها، والزواج بوحيدتها عائشة رضي الله عنها! فأي خيرٍ نزل بكم يا آل أبي بكرٍ! وأي فضلٍ أصبتم! وأي تكريم نلتم؟!! وأي شرف يضاهي هذا الشرف ويدانيه؟ وقد أمر رب العزة من فوق سبع سموات، وأرسل سفيره جبريل عليه السلام ليخبر رسوله ﷺ بهذا الزواج الميمون، أي تكريم لك ولزوجكِ يا أم رومان أعظم من أن يختار لكما رب العرش العظيم ذلك الصهر الكريم الذي لم يخلق له نظير؟ حُقَّ لك أن تكوني أسعد حماة، وأن تكون ابنتك أسعد الزوجات، وأعظمهن فخراً ومباهاة!

لقد جاءت الأخبار المتواترة الصحيحة أن العقد تمَّ في مكة قبل الهجرة، وأنه ﷺ بنى بعائشة في شهر شوال بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ولكن كيف تمت الهجرة المباركة؟ ومتى؟.

الهجرة إلى المدينة

بعد أن أذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، جاء إلى بيت صاحبه الصِّدِّيق ليعلمه، فسأله الصحبة، وكان قد أعدَّ راحلتين لهذا الغرض.

وأمر رسول الله ﷺ ربيبه عليَّ بن أبي طالب أن ينام في فراشه ليلة الهجرة، وأن يسلِّم ما لديه من أمانات وودائع إلى أصحابه، ثم يلحق به إلى المدينة المنورة بعد ذلك بصحبة زوجه السيدة سودة بنت زمعة أم المؤمنين، وابنتيه السيدة أم كلثوم والسيدة فاطمة الزهراء – رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ – وأما آل أبي بكر – السيدة أم رومان والسيدة عائشة – فسيرافقهما عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهم، وتمَّت الهجرة بسلام، وتحققت على خير ما يرام، وفق مشيئة العليم العلاَّم.

وفي المدينة أمر رسول الله ﷺ ببناء المسجد النبوي الشريف وإلحاق بعض الحجرات به لتكون سكناً لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهنَّ

أجمعين، وأخذت أم رومان بعد أن استقر بها المقام في المدينة تستعرض شريط ذكرياتها منذ زواجها الأول وانتقالها إلى مكة، ووفاة زوجها الأول، وزواجها بأبي بكر، ثم إرادة الله الخير بها بدخولها في دين الإسلام، ثم مشيئة الله تعالى باختيار أشرف المرسلين ليكون صهراً لها، فعلمت أي فضل وعناية خصَّها بهما رب العالمين!.

محنة الإفك

لكنَّ سحابة سوداء، وغيمة داكنة، عكَّرت صفو أم رومان، وأصابت حياتها بالرنق والتكدير، حين أقدم رأس المنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول على اختراع حادثة الإفك والترويج لها والإسهام في نشرها، فقد اتَّهم أم المؤمنين في شرفها، وأراد النيل من طُهرها والإساءة إلى عفَّتها، متغافلاً عن أنَّ أم رومان والصِّدِّيق، قد ربَّيا ابنتهما السيدة عائشة أحسن تربية، وغرسا في نفسها من مكارم الأخلاق والفضائل ما يجعلها في منأى من التُّهم والظُّنون والشبهات، ناسياً أن أم المؤمنين خيرة الله من النساء، وصفوة الطهر التي خصَّ بها رسوله ﷺ، ولكن نفس هذا الخبيث نضحت بأسوأ أحقادها، وأبدت عن شر شرورها، بعد أن حطَّم ظهور النبي ﷺ التاج الذي أوشك زعماء يثرب أن يضعوه على رأس ابن أُبيٍّ القذر، ويتوِّجوه ملكاً عليهم، ولكن خاب وخسر المبطلون، وقتل الخراصون والمفترون! ويلٌ لك يا ابن أُبي! بل ألف ويل!! لئن جعلت أطهر النساء وأعفهن عرضة لباطلك وتخرصاتك، فماذا أبقيت لغيرها من نساء المؤمنين؟.

أشهد أن حياءك لمعدوم، وأن حظك من الوقاحة لوفير! لقد ارتقيت مسلكاً وعراً، وخضت بحراً عاتي الموج، وما أظنك إلا من الهالكين، وتلك نهاية جديرة بعدو الله والدين، فتجهَّز لمجلس القضاء، يوم يقضي بين الناس رب السماء.

بأبي أنت وأمي أيتها الأم الرؤوم، كم أدخل عليك ابن أُبيٍّ من الألم والبكاء والمعاناة بغير ذنب قارفت، أو إثم اجترحت! ولكن الله لا يغفل عما

يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم لا ريب فيه، وأنت يا أمَّ المتهمة البريئة، رمز الطهر، ومَثَل العفاف، لقد طعن الأفَّاك الأثيم بتربيتك المثلى، وعرَّضك لشقاء ما كنت له تستحقين، ولكن يا أم رومان! إن الله ورسوله ﷺ وأبا بكر والمؤمنين ليعرفون فضلك وقدرك، وكفى بذلك عزاءً لك ولابنتك، والله لن يسلمكما لحاقدٍ لئيم، وأفَّاك ذميم، فقد حرَّم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227]!!.

وكانت أم رومان حين سمعت بما يخوض الناس فيه قد خَرَّت مغشياً عليها من هول الضربة وشدة وطأتها، غير أن ثقتها وإيمانها بالله ﷻ جعلاها تعتصم بالصبر وتستمسك بحبل الله المتين، وراحت تضرع إلى الله أن يكشف عن آل بيت أبي بكر تلك الغمة، فهو وحده القادر، وهو المستعان.

وقد كتمت أم رومان الأمر عن ابنتها السيدة عائشة رضي الله عنها رحمة بها، وشفقة عليها، ودفعاً لآلام قد لا تحتملها، ولكن إذا أراد الله أمراً فلن يمنع شيءٌ من حدوثه.

لم يلبث الحديث أن انتشر، ووصل إلى مسامع السيدة عائشة الخبر عن طريق أم مسطح بن أُثاثة التي كانت تتردد عليها، فوقعت السيدة عائشة في غَمٍّ شديد، وأدركت سر فتور رسول الله ﷺ عنها لعدة أيام خلت، فسألته أن يأذن لها في الذهاب إلى أهلها، فأذن، ولما دخلت عليهما وجدتهما صريعيْ هَمٍّ، غريقيْ حزنٍ شديدٍ، فراحت تبكي وتنتحب، وتسكب الدمع الغزير، ثم أقبلت على أمها معاتبة لها كتمانها لأمرٍ يخصها أكثر من غيرها، فَقَالَتْ لَهَا أُمُّ رُومَانَ: «يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلا كَثَّرْنَ، وَكَثَّرَ النَّاسُ عَلَيْهَا».

بيد أن القلوب المتعلقة بربها لا يتخلى عنها الله ﷻ عنها، ولا يدعها في محنتها، وما أحسب أن بيتاً من بيوت المسلمين كان الإيمان يعمر قلوب أهله كبيت آل أبي بكر! لأن شعاعات الهداية خرجت إلى بيوتهم من بيته، وغمرت قلوبهم من قلبه.

ولما أذن الله تعالى بكشف هذه المحنة القاسية بعث سفيره جبريل عليه السلام إلى رسوله ﷺ يبشره ببراءة أهله ويفضح فرية المفترين، بقرآن يتلى إلى أبد الآبدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور: 11 - 20].

ولما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ قام يزفُّ البشرى إلى السيدة عائشة، وغمرت الفرحة البيت النبوي المطهر، وبيت أبي بكر، وبيوت المسلمين، وباء المفترون بالخزي المهين.

وفاتها

وفي غزوة حنين آن لأم رومان أن ترتاح فأدركتها الوفاة، ونزل رسول الله ﷺ في حفرتها وقال: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا لَقِيَتْ أُمُّ رُومَانَ فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ**»، وقال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الحُورِ العِينِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أُمِّ رُومَانَ**»، واستغفر لها، رحمها الله تعالى، وأنزلها دار المتقين، ورضي عنها وأرضاها.